قتل الأهل والأقارب لأسباب دينية

عبد الرحمن الشقير(*)

دكتوراه علم اجتماع المعرفة ـ الرياض.

عرفت المجتمعات ظاهرة قتل الأهل والأقارب لخلافات مالية، أو لأسباب انحراف وتعاطي مخدرات، وهي ظاهرة مفهومة؛ لأنها تقع ضمن المشكلات الأسرية، ودوافعها ذاتية تتصل بأطراف القضية أنفسهم. ولكن الخطر الذي يهدد المجتمع يكمن في حالات قتل الأهل والأقارب لأسباب دينية لا تخص القاتل شخصياً؛ لأن القاتل هنا مسلوب التفكير، ومحكوم بأيديولوجيا منبوذة اجتماعياً بسبب سوء تأويلها النص الديني المقدس، وتلقينه لأتباعها، وادعائها حق امتلاك إسقاط مفهومه على المجتمع، ومن ثم تنفيذها أحكام القتل فيمن يخالف عقيدتها، ومحاولة إسقاط هيبة الدولة.

يقصد بالقتل في هذه الدراسة هو: القتل لأسباب دينية، ولا يدخل معها القتل لأسباب اقتصادية ولا اجتماعية، كما لا يدخل معها استخدام العنف والتعنيف ضد الأهل والأقارب لأسباب دينية. وظاهرة استخدام العنف بكل أشكاله ضد الأهل والأقارب ليست جديدة؛ هي في الغالب تأتي من الأصول إلى الفروع، ولكن أكثر حالات هذه القضية وأهمها، تقع في سياق عنف الفروع ضد الأصول، أو عنف الأبناء ضد الآباء والأمهات. وهذا الأمر ينذر بانتهاك قوانين الدولة، وحقوق الأهل والأقارب لأتفه سبب، مما يتطلب الانتباه إلى تعزيز ثقافة قداسة الأهل والأقارب، «فشبكات القرابة تفتقر إلى جسور مستقرة، فصار يعتريها الضعف والوهن... فليس بوسع شبكات القرابة أن تكون على يقين بإمكانات بقائها، ولا حساب عمرها المتوقع» (باومان، ٢٠١٦: ٦٦). لذلك؛ فإن هذه الدراسة تلفت الانتباه إلى خطر قتل الأهل والأقارب على تفكك نسق الأسرة، وتدعو إلى إعادة القداسة لها، وهي قضية لم تحظ بالدراسات الاجتماعية التي تستحقها حتى الآن، ولم أجد مصادر لها باللغة الإنكليزية غير قضايا الجهاد والجماعات الإرهابية بشكل عام، ولكن يوجد كتاب *Deadly Cults: The Crimes of True Believers* للمؤلف روبرت سنو (Snow, 2003) وهو قائد شرطة أمريكي، وفكرته الأساسية تبحث في قدرة القادة الكارزميين في الطوائف الدينية على تحويل أتباعهم إلى قَتَلة لمن يختلف معهم في العقيدة، بل قد يقتلون أنفسهم فداء للقائد ولتعاليمه، من طريق تلقينهم المعلومة المقدسة، ولا يتضمن معلومات مهمة عن قتل الأهل والأقارب لأسباب دينية. وفي رأيي إن دراسة قتل الأهل والأقارب قد يسهم في كشف

(*) البريد الإلكتروني: alshuqir@hotmail.com.

ظاهرة الإرهاب وتفكيكها، فهي حالة إرهاب جديد، ويهيئ الفضاء الفكري لدراسة الظاهرة بمعزل عن آراء الكتّاب والمفكرين الذين يتقاذفون التهم، ويستنبطون النصوص التراثية المحرضة ضد المذاهب المخالفة.

وقد جمعت حالات قتل الأهل والأقارب، التي وقعت في السعودية، بجهد فردي من خلال تحليل مقاطع الفيديو وبعض ما نشرته الصحف المحلية، إذ إن بيانات وزارة الداخلية لم تشمل جميع الحالات، ولم تصرح بالتفاصيل الدقيقة لكل حالة، كما أن المراكز الاجتماعية ومراكز أبحاث الجريمة في معزل عما يجري، ولم تُنشر دراسات ولا توجد إحصاءات منشورة تساعد على تحليل الظاهرة. وقد قمت في بداية اهتمامي بالظاهرة بمسح الدراسات والمصادر للاطلاع على مقولات علماء الاجتماع والجريمة ونظرياتهم، ولم أجد إلا نظريات عامة لجرائم تقليدية وإرهاب مرصود؛ لأن الظاهرة جديدة، وكل ما وجدته مقالات وتقارير صحافية أراها متعجلة في فهم الظاهرة، ومحاولة تجلية أسبابها. وستتضمن الدراسة عرضاً موجزاً لحالات قتل الأهل والأقارب لأسباب دينية، ثم تحليل الظاهرة وفق مقاربة اجتماعية.

أولاً: مفاهيم الدراسة

١ ـ قتل الأهل والأقارب

يمثل قتل الأهل والأقارب لأسباب دينية محاولة مضللة لخلط الإرهاب بالجهاد؛ لذلك يحرص أغلب من قتلوا أهلهم وأقاربهم على تصنيف القضية بأنها جهاد؛ لأنهم كفار، حسب زعمهم، ويوالون من حاد الله تعالى ورسوله، ويوجز الحجاوي تعريف الجهاد بقوله: «الجهاد هو قتال الكفار» (أحمد، ٢٠١٥: ٥١). تكمن بلاغة هذا التعريف الموجز في دمج مفهومَي الجهاد والقتل، وهما مصطلحان وردا كثيراً في القرآن مرتبطان بتحديد العدو المعروف بمصطلح الكافر. العنصر المهم هو تصنيف داعش لتكفير الأهل والأقارب، والتبرؤ منهم، ثم قتلهم، بالكفر، بل يرونهم أشد كفراً من اليهود والنصارى، ومن جميع الطوائف التي يكفرونها، ويمكن تعريف مفهوم قتل الأهل والأقارب لأسباب دينية بأنه: «قيام أحد أفراد الأسرة، أو أكثر، الذين ظهروا بمظهر الغيور على الدين، بقتل قريب له، لسبب ديني»، وجوهر التعريف يحدد المتغير التابع وهو قتل الأهل والأقارب فقط، ويحدد المتغير المستقل أو السبب بأسلوب فهم الدين، وهذا التعريف ينطبق على مصطلح الذئاب المنفردة، وسوف يرد تعريفهم لاحقاً، الذين يؤيدون فكر داعش، ولا يستطيعون الانضمام إليهم، فيقومون بعمليات قتل بجهود فردية.

٢ ـ الأسباب

السبب (Cause) لغوياً هو كما في تعريفات الجرجاني: اسم لما يُتوصل به إلى المقصود (الجرجاني، ١٩٨٥: ١١٩)، والسبب فلسفياً هو: «ما يترتب عليه مسبب عقلاً أو واقعاً،

فالمقدمات الصادقة سبب صدق النتيجة، وبعض الظواهر الطبيعية سبب ظواهر أخرى، وهذا هو المعنى السائد اليوم» (مجمع اللغة العربية، ١٩٨٣: ٩٦)، ومن هنا يتبين أن الأسباب والنتائج عملية اجتماعية خارجة عن الرغبات الداخلية للفرد، وقد فضلت استخدام مصطلح (أسباب) على مصطلح (دوافع) Motif، لأن الدافع مصطلح نفسي يقصد به: البواعث الذاتية أو الباطنية، والدافع بهذا المعنى الخاص عبارة عن قوة داخلية موجهة، وأنه ينشأ داخل الفرد كنتيجة مباشرة لخبرته في الحياة، وإن كان يستخدم في الحياة اليومية بمعانٍ أوسع (الخازن، ١٩٥٦: ٨٧)، ويقصد بالأسباب في هذه الدراسة: المسوغات الأيديولوجية. ومن المهم في البداية أن أؤكد أنه لا يوجد سبب واحد يفسر تصرفات الإنسان، «بل مجموعة لا تنفصل من العوامل الشعورية واللاشعورية، فيزيولوجية، فكرية، وجدانية، اجتماعية، تتفاعل بالتبادل (سيلامي، ٢٠٠١: ج ٣، ص ١٠٥٠).

ثانياً: عصر إرهاب جديد

أرى أن هناك مبادئ تأسيسية لفهم الظاهرة قبل الخوض في تفسيرها، وأهم هذه المبادئ والأسس هو تعريفها. ولا يكتمل تعريفها إلا بمعرفة بيانات أولية ومتكاملة عن طبيعتها، وتحديد فضائها الاجتماعي؛ فهي تسمى جريمة وتسمى إرهاباً، بل قد تسمى عملاً شرعياً مأجوراً عليه كما في الحالات التي وقعت في مناطق نفوذ تنظيم الدولة داعش. وهذه تسميات فيها جانب كبير من الدقة حسب ظروفها المحيطة؛ لأن تصنيفها يخضع لتصنيف القانون لها ولحجم رد فعل المجتمع عليها، وإذا استبعدنا تصنيفها لدى داعش، وركزنا على تجريمها فمن المهم التنبه إلى أنها جرائم وإرهاب مختلفة تماماً عن غيرها. وفي رأيي أن قتل الأهل والأقارب، وبخاصة اعتداء الفروع على الأصول، يعد جريمة منفصلة عن مفهوم الجريمة العام، إذ إن علم الجريمة كما يعرفه أدوين سذرلاند هو: «دراسة مجمل عملية صنع القانون، وخرق القانون، وإنفاذ القانون» (إيكرز وسيلرز، ٢٠١٣: ٢٤). ويبدو لي أن تصنيفها ضمن علم الجريمة فقط قد ضلل الباحثين، وأبقى على جوانب لم يستطع علم الجريمة حلها بمفرده، وبخاصة أنها تفتقد الجانب العقلاني والنفعي لها، وهو الجانب الذي تؤكده نظريات الجريمة.

وتختلف نسبياً عن مفهوم الإرهاب (Terror)، وعلى الرغم من كثرة تعريفاته فقد اخترت تعريف إبراهيم الحيدري لقربه من الجهاد ضد الأهل والأقارب، وهو: «كل عنف مسلح يرتكب بغرض سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو أيديولوجي أو ديني، ينتهك المبادئ العامة للقانون الإنساني» (الحيدري، ٢٠١٥: ٣٣)، ونظراً إلى تميز قتل الأقارب بارتباطه بالتدين فجأة، والتنفيذ السريع للقتل، وهذان عنصران أساسيان، لذلك أقترح أن تبقى تحت تصنيف الإرهاب، بوصفه مظلة عامة. ولكنْ من المهم أن تحظى بعناية خاصة، ويكون لها أساليب بحث خاصة بها، ويمكن تصنيفها بأنها «عصر إرهاب جديد»؛ وذلك لأنها ظاهرة جديدة، فكل حالات قتل الأهل والأقارب لأسباب دينية في جميع الديانات تختلف عن هذه الظاهرة؛ لأن غالب الجناة في هذه الدراسة ليسوا متديِّنين في الأصل، ولا من أسر متشددة

دينياً، وإنما دخلوا في التديُّن عرضاً، أما الجناة المتديِّنون قبل ظهور تنظيم داعش فهم يتبعون فكر القاعدة في الغالب، ومعروف أن أدبيات القاعدة وجبهة النصرة فيما بعد لا تدعو إلى قتل الأهل، وإنما تدعو إلى قتل العسكريين وإن كانوا من الأقارب فقط، كما أن الظاهرة لا تعد تطوراً لحالات الإرهاب المصنفة في المجتمع، وليس لها جانب عقلاني ولا نفعي يعود على الجناة، وأخيراً كانت كل حالة تنفذ بمعزل عن الحالات الأخرى.

وأرى أن الظاهرة تقع في اهتمام علم اجتماع المعرفة بحكم أنها إرهاب أيديولوجي وقناعات فكرية يتلقاها الإنسان العادي في الحياة اليومية عن طريق التلقين، ثم يحولها إلى سلوك وممارسة وكأنها طبيعية. وتكمن خطورتها في أنها نواة عنيفة لتفكيك نظام الأسرة وتماسك القرابة؛ لأنها تسعى لضرب عنصرَي الأمان والثقة بين أفراد الأهل والأقارب، ومما يؤكد انعزال قتل الأهل والأقارب عن جرائم المجتمع، بحسب معرفتي بالمجتمع، أن بعضها يتضمن الترصد وتصوير القتل وبثه في وسائل التواصل الاجتماعي بهدف شحن النفوس واستفزاز المجتمع، وهذا يدعم أن الظاهرة بزغت (والبزوغ هو الظهور بسرعة وبقوة) بمعزل عن أي تطور تاريخي لها، وأن حالات قتل الأقارب التي وجدت بين عناصر القاعدة لم تمس الأهل وأصول القاتل (الأبِ والأم). لذلك سميتها «عصر إرهاب جديد». ومن المهم الإشارة إلى ظاهرتين تلتقيان جزئياً مع هذه الدراسة، ولكنهما لا تقعان فيها.

الظاهرة الأولى: أن ظاهرة قتل الأهل والأقارب لأسباب دينية جديدة على المجتمع العربي، إذ شهد المجتمع حالات قتل الأهل والأقارب في مناطق الصراع في سورية والعراق، وكلها لأتباع داعش، من أشهرها حادثة الداعشي الذي قتل أمه في الرقة في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٦ بحسب ما تناقلتها وسائل الإعلام؛ وإن صحت أو وجد حالات مشابهة لها فتكون حدثت بوصفها داخل مناطق نفوذ تنظيمِ الدولة داعش، وهو ما يعني شرعيتها لدى السلطة المسيطرة، ولم تصنف جريمة ولا إرهاباً وفق أنظمتهم؛ لذلك استبعدتها من الدراسة. كما استبعدت حالتين من قتل الأهل والأقارب وقعتا عام ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م بسبب أنهما لم تصنفا ضمن المنهج التكفيري، وهما: الحالة **الأولى:** قتل الأب؛ وقعت في خميس مشيط، بتاريخ ١٨محرم ١٤٢٨هـ ـ ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٧، وعمر الجاني ٣٢ سنة، قتل والده بمسدس. والحالة **الثانية:** قتل الخال: نفذها ستة شباب أحدهم ابن أخت القتيل وهو المدبر، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ويعمل إمام مسجد في بريدة، ويحمل الشهادة الجامعية، واعترف ابن الأخت بأن سبب القتل هو الانتقام من خاله العقيد (٥٨ سنة)، بسبب قبضه على القاتل في قضية أمنية، كما استبعدت حالات قتل الأهل والأقارب لأسباب اقتصادية أو لخلافات عائلية أو بسبب تعاطي القاتل المخدرات.

الظاهرة الثانية: أن ظاهرة قتل الأهل والأقارب ليست امتداداً لظاهرة وجود أخوة وأبناء عمومة تكفيريين في الأسرة الواحدة. فالتكفيريون الأقارب يمتلكون عنصر الثقة في الأسرة، ووضوح الهدف في تحديد ضحاياهم، ويعرفون أسراراً لا يعرفها غيرهم، لذلك؛ فهم يتمتعون بحنكة وخبرة وتنسيق عالٍ كفيل بأن يمنعهم من قتل أهلهم وأقاربهم، ما عدا العسكريين منهم. وهذا يدل على أن هؤلاء الذين قتلوا أهلهم وأقاربهم عبثيون بلا رؤية

وبلا هدف، بل دخلاء على الإرهاب وجهلاء بأصول الجرائم وعقلانيتها ونفعيتها، أو هم أهل تنفيذ ميداني، وليسوا أهل نظر وفكر.

ومع إدراكي بأن عددها قليل، ولا يمثل ظاهرة؛ لأنها لا تحمل شروط الظاهرة التي من أهمها تكرارها بشكل كبير، إلا أن ارتباطها بأهم ثلاثة مكونات للمجتمع واستهدافها لها، وهي: الأسرة، والدين، والدولة، كفيل برفع مستوى جدية التعامل معها، وتصنيفها بوصفها ظاهرة، من حيث التعامل معها ومعالجتها واتخاذ جميع التدابير الممكنة لمنع تكرارها.

ثالثاً: الذئاب المنفردة

يستخدم تنظيم الدولة (داعش) وأدبيات الإعلام الغربي والعربي مصطلح «الذئاب المنفردة» على أتباع داعش الذين يؤمنون بأفكارهم، ولكن لا تربطهم بهم علاقة مباشرة، وينفذون هجماتهم بصفة فردية وبسلاح خفيف، أو أبيض، أو باستخدام السموم، بطريقة تهز المجتمع وتحرج الدولة، وكثيراً ما يوجه أعضاء داعش خطاباتهم للذئاب المنفردة من خلال مواقع الإنترنت، ويوتيوب، ومجلة **دابق**، وقد جمعت ست حالات قتل الأهل والأقارب نفذها من يمكن أن يطلق عليهم: الذئاب المنفردة لأسباب دينية جميعها وقعت بين عامي (١٤٣٦ ـ ١٤٣٧هـ/٢٠١٥ ـ ٢٠١٦م)، وحللتها مستعيناً بمنهج دراسة الحالة، ويقصد بها التعمق في تتبع حالة فردية أو ظاهرة، وهي مناسبة لمن أراد التقصي في تتبع الحالة، كما أنها تعويض منهجي لمن لديه حالات قليلة ولا يستطيع استخدام منهج المسح الاجتماعي الذي يتطلب حالات كثيرة، وترى بولين يونغ «إن من يستخدم منهج دراسة الحالة يستطيع أن يختبر مواقف وأشخاصاً وجماعات ونظماً اجتماعية، بحيث تكون نظرته إليها نظرة كلية، ومن الممكن أيضاً أن يصل الباحث إلى تعميمات من طريق دراسة عدد من الحالات... قد تكشف هذه التعميمات عن عوامل سببية عديدة تؤثر في الموقف الكلي (أبراش، ٢٠٠٩: ١٦٣)، وذلك كما يلي:

١ ـ الحالة الأولى: قتل الأب

وقعت الجريمة في خميس مشيط، بتاريخ ٢٧ رمضان ١٤٣٦هـ ـ ١٣ تموز/يوليو ٢٠١٥م، وكان الجاني من المطلوبين أمنياً، وقد قتل والده برشاش؛ لأنه المبلِّغ عن مكانه، وكان مع قوات الأمن المداهمة، وأصاب اثنين من رجال الأمن.

٢ ـ الحالة الثانية: قتل الخال

وقعت في حي الشفاء بجنوب مدينة الرياض ٢٩ رمضان ١٤٣٦هـ ـ ١٥ تموز/يوليو ٢٠١٥، وعمر الجاني ١٨ سنة، تخرج من الثانوية، ولم يجد عملاً لمدة سنة، وقتل خاله، وهو ضابط برتبة عقيد، بسكين ومسدس كاتم الصوت، وبعد قتل خاله بالمنزل اتجه إلى الحائر للتفجير بحزام ناسف.

٣ ـ الحالة الثالثة: قتل ابن العم

وقعت في منطقة حائل، بتاريخ ١١ ذي الحجة ١٤٣٦هـ ـ ٢٤ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥م، عمر الجانيين ١٦ و٢٢ سنة، يحملان شهادة الثانوية، ولا يعملان، وقد استخدما الرشاش في قتل ابن عمهما، وهو عسكري يحمل الشهادة الثانوية وعمره ٢١ سنة، وحسب إفادة الأقارب كان القاتلان والمقتول ملازمين بعضهم بعضاً بحكم القرابة وتقارب العمر، وينجزان أمورهم بشكلٍ جماعي. قال والدهم: إنهم طوال اليوم أمام شاشة الكمبيوتر. ولم يكونا مطلوبين أمنياً، وأكد أحد أفراد القرية في لقاء صحافي معه، بأن القاتلين تغيّرا بعدما استخدما الإنترنت. مع أن إمام المسجد أفاد أنهما غير ملتزمَين بالصلاة في المسجد. ولم يظهر عليهما مظاهر التديُّن. والحالة الاقتصادية للقاتلين متوسطة من خلال شكل المباني في القرية التي يعيشون بها.

٤ ـ الحالة الرابعة: قتل ابن العم

وقعت في القصيم، بتاريخ ٧ جمادى الأول ١٤٣٧هـ ـ ١٥ شباط/فبراير ٢٠١٦م، من ستة من الجناة أقرباء تتراوح أعمارهم بين ١٨ ـ ٣٢ سنة، قتلوا ابن عمهم العسكري برشاش، وقد عُثر معهم على كتب تطوير الذات وفي البرمجة اللغوية العصبية والعقل الباطن. وعلى عديد من بطاقات الصراف. منهم ثلاثة كانوا سابقاً عازفين على العود ومحترفي تهكير وشبكات، لكن خلال سنتين ابتعدوا عن أي اجتماعات للعائلة والأقارب.

٥ ـ الحالة الخامسة: قتل أحد الأقارب

وقعت في القويعية، بتاريخ ٢٧ جمادى الثانية ١٤٣٧هـ ـ ٥ نيسان/أبريل ٢٠١٦م، واستخدم الجاني رشاشاً لقتل قريبه الضابط، وقيل: إنه خاله. وهذا غير صحيح، وقد كان الجاني ضمن أحد المطلوبين أمنياً في إطلاق النار بمسجد المصطفى بالدالوه، ومسجد قوات الطوارئ بعسير.

٦ ـ الحالة السادسة: قتل الأم

وقعت في الرياض، يوم الجمعة ١٩رمضان ١٤٣٧هـ ـ ٢٤ حزيران/يونيو ٢٠١٦م، حيث قام بهذه الجريمة أخوان توأمان، عمرهما ١٨ سنة، ولا يعملان، ومتوقفان عن التعليم عند المرحلة المتوسطة، وكانا يدرسان في مدارس أهلية، واستخدما في قتل والدتهما ساطوراً وسكاكين، ولم يكونا مطلوبين أو لديهم أي سوابق جنائية. كما طُعن الأب ٧٣ سنة، والأخ ٢٢ سنة، ومحاولة طعن الأخت ٢٩ سنة إلا أنها تحصنت بإحدى غرف المنزل.

رابعاً: تحليل الظاهرة

يقول تزفيتان تودوروف في «الخوف من البرابرة»: «لا يكفي أن ندين العنف إذا أردنا أن نمنع عودته، يجب أن نحاول فهمه؛ لأنه لا ينفجر أبداً من غير سبب» (تودوروف، ٢٠٠٩: ٩٩)، وقد كنت بحاجة إلى معرفة ثمانية متغيرات مستقلة، وهي: عمر القاتلين، وحالتهم الزواجية، ومستواهم الاقتصادي، ومستواهم التعليمي، والبطالة، وعلاقتهم بالتقنية ووسائل التواصل الاجتماعي، والمنطقة التي يسكنونها، ومدى وجود قريب عسكري لهم، وذلك لمحاولة التعرف إلى السبب الدافع لعملية قتل الأهل والأقارب. وقد جمعت الملاحظات للحالات الست الخاصة بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية والسمات الشخصية للجناة من تغطيات الإعلام، ولاحظت أن السمات الأساسية التي يشترك فيها القاتلون في الحالات الست هي التالية: أن جميع الحالات وقعت في سنتين متتاليتين خلال عامي: ١٤٣٦هـ ـ ١٤٣٧هـ/٢٠١٥ ـ ٢٠١٦، وأن جميع القاتلين من جنس الذكور، وتتراوح أعمارهم بين ١٦ ـ ٣٢ سنة، وجميعهم غير متزوجين، وأن أغلب القاتلين لم يسافروا خارج المملكة، وأن مستواهم الاقتصادي، بحسب ما اتضح لي من تغطيات الإعلام والمقابلات التي أجريت مع ذويهم وجيرانهم، ما بين مستقر إلى ضعيف؛ أي أنهم من ذوي الطبقة الوسطى المتوسطة والطبقة الوسطى الهشة، وتعليمهم ما بين المرحلة الثانوية والمرحلة المتوسطة وقليل منهم جامعيون، وأكثرهم يعيش بلا عمل، ووجدت عدداً من الحالات تعرضوا للتقنية ووسائل الاتصال لساعات طويلة قبيل تنفيذ عملياتهم بأشهر. أما مناطق تنفيذ الجرائم فقد توزعت بين مدن كبرى وصغرى، وتوزعت بين الجنوب والشمال والوسطى. كما أن أربعة من أصل ستة من المجني عليهم من الأهل والأقارب يعملون في القطاع العسكري، إضافة إلى وجود حالات توثيق عملية القتل بالصوت والصورة ورفعها على مواقع التواصل الاجتماعي.

يتضح من جميع المتغيرات أنها طبيعية، وتوجد بين الإرهابيين كما هي بين الأشخاص العاديين؛ فالبطالة وانخفاض المستوى الاقتصادي والتعليم وعدم السفر والجنس والعمر والتعرض للتقنية ووسائل الاتصال، كلها طبيعية في المجتمع، ولم تسجل حالات قتل بسبب أن الجاني ذكر أو شاب أو عاطل أو غير متعلم مثلاً. وأرى أن أي ربط علاقة بين المتغيرات المستقلة بوصفها عاملاً مفسراً لقتل الأهل والأقارب سيكون علاقة زائفة، ومعنى ذلك أن هناك أسباباً متخفية في داخل الظاهرة لم تلتقط بعد. وفي ما يبدو لي أن جوهر الفكرة الأساسية التي تفصل جريمة قتل الأهل عن بقية جرائم الجماعات الإرهابية والمتشددة هي تكفير الأهل والأقارب؛ فتكفير الأهل والأقارب يتطلب البراءة منهم، ثم قتلهم، وهذا ما صرح به بعضهم، وبدا أنه قصد من لم يصرح بقتل أهله وأقاربه، كما أن أكثر القاتلين حديثو التدين وبطريقة بدائية، إذ لم يكن لديهم الوقت بين تدينهم وارتكابهم الجريمة لمراجعة العلم الشرعي وفرز الأقوال المعتمدة عن الأقوال الشاذة، وإنما كانوا في دور متلقي المعلومة، فصار من السهل صدمهم بأي تفسير ديني شاذ، ثم تصويره على أنه الدين الحق الذي لم ينهض بتطبيقه أحد، كما سيأتي.

١ ـ التراث السلفي بين الإدانة والبراءة

طرح عدد من كتاب الرأي والمحللين في الصحف المحلية ووسائل الإعلام عدداً من الفرضيات والاتهامات بهدف تحميل جهات أو أفكار معينة مسؤولية ما حدث، وقد تراوحت ما بين: السحر، وألعاب الأطفال الإلكترونية، وأهمها اتهام بعض الكتاب للتراث الإسلامي السلفي بأنه سبب نشوء ظاهرة قتل الأقارب، مستدلين بنصوص من القرآن والسنة وأقوال العلماء وبعض الفتاوى المعاصرة كمسألة الولاء والبراء، وقتل المرتد، واتهام حلقات تحفيظ القرآن، والمناهج الدراسية الدينية، والفتاوى المحرضة، وتراث ابن تيمية. كما أن خطاب تنظيم الدولة (داعش) يحاول أن يبدو سلفي الاتجاه من خلال تدعيم مواقفه بنصوص سلفية إما مجتزأة أو مقولات شاذة غير معمول بها، تتقاطع مع اتجاههم... ولكنها في رأيي لا تصمد أمام النقد، فجميع أفراد المجتمع تعرضوا للتعليم وللفتاوى، ولم يثبت أن لها تأثيراً يصل إلى مستوى قتل الأهل والأقارب قصداً، كما لا يدعمها شيء من خصائص القاتلين وسماتهم الاجتماعية والاقتصادية والبيئة التي عاشوا فيها، فهي سمات الطبقة الوسطى الطبيعية، وأكثر فتاوى التكفير التي صدرت من الجماعات الدينية المتشددة والإرهابية كانت موجهة ضد الأنظمة وضد القواعد العسكرية الأمريكية في المنطقة العربية، وليس من بينها تحريض على قتل الأهل والأقارب؛ وإن وجدت نصوص من التراث فهي وجهات نظر، ولم تدخل حيز التنفيذ واقعياً، ولم يقل شيخ ولا مفتٍ يُعتدّ بقوله بوجوب تنفيذ القتل لشخص بعينه، بل بقيت فتاوى ومقولات نظرية ثانوية من بين فتاوى أكثر حضوراً وسلميةً في الحياة اليومية. كما أن تفعيل هذه النصوص على أرض الواقع ارتبطت بالولاء لفكر داعش، ولم يكن ذلك في فكر القاعدة ولا فكر جبهة النصرة؛ لأنه إن وجد فهو مطروح منذ قرون، وقد مر مجتمعنا بعقود من الجهاد لم يقتل أحد قريبه، أما قصة مقتل أبي عبيدة لوالده، فقد أشار ابن عاشور إلى أنه «رُويت ثمانية أقوال متفاوتة قوة أسانيد استقصاها القرطبي في نزول هذه الآية، وليس يلزم أن يكون لها سبب نزول، فإن ظاهرها أنها متصلة المعنى بما قبلها وما بعدها من ذم المنافقين وموالاتهم اليهود، فما ذكر لها من قصص لسبب نزولها فإنما هو أمثلة لمقتضى حكمها» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ج ٢٨، ص ٥٨). ويبدو لي أن قصة القتل المنتشرة، إن صحت، كانت على أرض المعركة وليست غيلة، وأن أبا عبيدة تعرض للنفي الاجتماعي بعدها لفداحة الحادثة، فنزل القرآن: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾ [المجادلة: ٢٢]. الآية، تعزية له وتخفيفاً عليه، وليست حضاً على القتل ابتداءً؛ لذلك استبعدت فرضية اتهام التراث الفقهي بالحض على قتل الأهل والأقارب مهما كان متشدداً؛ لأن له سياقاً تاريخياً مختلفاً. واستبعدت فرضية الأسباب النفسية، ومن أبرزها: نظرية الدفاعات النفسية، ونظرية الباراسيكيولوجي، ويقصد به التأثير في الشخص من بعد، بوصفها تحتاج معالجة مختلفة منهجياً، ويصعب قياسها.

وقد استخدم تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» المسائل الشاذة في التراث الإسلامي كثيراً لتسويغ مشروعه، واستعان بشباب دخلاء على التديُّن، ممن يحملون صورة ذهنية

نمطية عن الدين وليس لديهم قدرة على الاطلاع الشرعي، ومستعدين للتلقين والتنفيذ، ومن أبرزها استخدام مفهوم قتل الأهل والأقارب بوصفه مرادفاً للجهاد. وفي المقطع الشهير المرفوع على «يوتيوب» والذي ظهر فيه أحد أعضاء داعش يسوغ فكرة قتل الأهل والأقارب مستشهداً بدليلين من القرآن الكريم، ومما قاله: «... ابدأ بالأقربين، الأقربون أولى بالمعروف، ما فيه معروف، أعظم معروف، الولاء والبراء... (**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله**)، حتى لو كان أبوك أو أخوك أو عمك، تبرأ منهم... تبرأ منه أولاً، ثم اقتله ثانياً...». ويظهر من هذا النص بأن داعش تستخدم استراتيجية أدوات العقيدة الإسلامية ذاتها، من خلال الولاء والبراء، وتأويل القرآن الكريم بما يحقق مصالحهم. وقد أكد في المقطع أيضاً بأن عدو الإسلام الحقيقي هم المنتسبون إلى الإسلام، ويبدو أن هذه فكرة أساسية في منطق التكفيريين عموماً، كما سمعت من أفاد أحد المقاتلين المنتمين إلى جبهة النصرة، ممن عادوا وتابوا، بأنه تحاورَ كثيراً مع رجال من داعش، منتقداً لهم بأنهم يكفرون المسلمين، فاستشهدوا بآية: «ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله» وأن العقيدة الصحيحة، في زعمهم، هي البدء بقتل الطواغيت قبل تحقيق الإيمان بالله، والطواغيت عندهم هم الحكام ومن والاهم من العسكريين، ثم عامة الناس، ولذلك يفضلون قتل الأهل والأقارب باسم الجهاد، مستشهدين بالحديث «والأقربون أولى بالمعروف».

وتمثل حالات قتل الأهل والأقارب أوضح الدلائل ببراءة الاتجاه السلفي من فكر داعش، إذ إن الموقف السلفي يمنح الأهل والأقارب قدسية عالية، ويحث على صلة الأرحام، ويشدد كثيراً على تحمل أذاهم، حتى الكافر منهم، في حين أن موقف داعش هو التبرؤ من الأهل والأقارب، بمن فيهم الوالدان، ثم قتلهم، وتشجيع الذئاب المنفردة على تحقيق هذا الهدف.

٢ ـ تأصيل فكرة قتل المخالف

عند البحث في أيديولوجيات الملل والنحل التي ظهرت في صدر الإسلام، نلحظ أن كثيراً منها قد اندثر؛ لأنها، في رأيي، كانت تناهض المجتمع، وليس لها تنظير يعزز أمن المجتمع وتماسك مؤسساته، وأرى أن تنظيم الدولة (داعش) يحمل في داخله بذور سقوطه؛ لأنه لم يؤسس على فكرة اجتماعية، إذ يشترك فكر تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) مع فكر فرقة مندثرة كانت مشهورة بقوة بأسها ضد كل من يخالفها بمن فيهم النساء والأطفال، تسمى الأزارقة، وهي من فرق الخوارج تنسب إلى نافع بن الأزرق (المتوفى سنة ٦٥هـ/٦٨٥م)، واشتهروا في البصرة أولاً، ويبدو أنهم يؤمنون بعبثية فكرتهم وعدم وجود هدف نهائي لها، واستحالة تطبيقها، ومن أخطر فتاوى الأزارقة الاجتماعية كانت تكفير كبار الصحابة، وتكفير القَعَدة، وهم الذين قعدوا عن القتال، وأجازوا قتلهم وقتل من لم يهاجر إلى مناطق الجهاد، وقتل نسائهم وأطفالهم، كما كفّروا مرتكب الكبائر (الشهرستاني، ١٩٦٨: ج ١، ص ١٢٢ ـ ١٢١)، وأهم مقولاتهم كانت إباحة «الاستعراض»، ويقصد بها قتل المخالفين أينما كانوا، ولم تجز «التقية» لا قولاً ولا عملاً، وهما المسألتان اللتان اختلفت معهم الصُّفرية وفارقتهم بسببها؛ لذلك كان الأزارقة في حروب مستمرة (معيطة، ٢٠٠٠:

٢٧)، ويبدو أن آراءهم الراديكالية كانت رد فعل عنيف ضد انتشار الكبائر في المجتمع. وحين تغير نظام الحكم مع صعود الدولة الأموية، قضى عليهم الحجاج سنة ٧٨هـ/٦٩٧م، ولم تقم لهم بعدها قائمة. ولاحظ فلهوزن، وهو من رواد المستشرقين الألمان ومن أوائل من حلل منهج الخوارج بعمق معتمداً على المصادر الأصيلة، أنهم كانوا رجال عمل وميدان لا رجال نظر وفكر (فلهوزن، ١٩٥٨: ١١٩). ويرى معيطة أن انغماسهم في الحروب حال بينهم وبين صياغة نظرية متكاملة أو أيديولوجية، لذلك كانوا يخضعون لاجتهادات زعمائهم (معيطة، ٢٠٠٠: ٢٢).

يبدو لي أن طبقة القراء وهم من طليعة الخوارج في العراق كانوا نواة للعقل النصي التلقيني، وهو العقل المؤسس للتعصب والعنف ضد المخالف، إذ تبنوا فكرة أن القرآن هو الحكم والوسيط في المشاكل التي تعترض المسلمين، وحملوا العامة على هذا الرأي، وكانوا هم أول من نقضه عندما ثاروا على معاهدة الصلح وإقرار التحكيم الذي ألزموا به عليّ رضي الله عنه، فكانوا هم طليعة الخوارج (فلهوزن، ١٩٥٨: ١٤). فالخوارج لا يعترفون بالجماعة التي تمثلها الدولة، وأن لا مكان في بلاد المسلمين إلا للصالحين، فمزقوا بهذه الفكرة شمل الجماعة، واستحلوا دماء خصومهم من المسلمين، ولم يعد جهادهم ضد الكفار، بل ضد أهل السنة والجماعة من عامة المسلمين، ويرون فيهم أنهم كفاراً، بل أشد كفراً من النصارى واليهود والمجوس، ويعدون قتال عدوهم هذا الداخلي أهم الفروض، ويرون أنهم المسلمون الحقيقيون وحدهم (فلهوزن، ١٩٥٨: ٣٢).

ويشترك الأزارقة مع داعش في ثيمة اجتماعية وأيديولوجية متقاربة وإن بعُد الزمان بينهم، ولو عملنا مقارنة بينهما للاحظنا التالي: يشترك الأزارقة مع داعش في نظرتهما للدولة، إذ ناهض الأزارقة الدولة الأموية، واتهموها بالبعد عن الإسلام، وأنهم هم من يمثل الإسلام الصحيح، وزايدوا عليها بالدين من خلال فكرة يوتوبية أو المدينة الفاضلة، كما ناهضت داعش الدولة السعودية، بوصفها أهم دولة ترعى الإسلام السنّي، واتهموها بابتعادها عن الدين الصحيح، وزايدوا عليها بالدين باستخدام خطابات يلقيها شباب سعوديون ملتحقون بداعش، كما أن كليهما يؤسس أتباعه من طريق التلقين، ومبايعة قائد كارزمي ذي جاذبية على الموت في سبيل تحقيق الهدف الذي يدعوهم إليه، وكليهما يدعو إلى قتال المسلمين قبل قتال الكفار، وكليهما يؤمن بمجتمع عسكري مسلح لا مدنية فيه، وأن الجهاد والموت في سبيله هو غايتهم، وكليهما أهل حرب وقتال، وليس أهل فكر ونظريات علمية، ومن هنا فيمكن تصنيف فكرة قتل الأهل والأقارب بأنها إعادة إنتاج لفكر الأزارقة، وبعث جديد لتراثهم. ومن يتابع خطاب داعش يجد في أدبياتهم بذور نبتة خارجية أزرقية مع حرصهم على تأصيل فكرهم بالصبغة السلفية.

٣ ـ التدين البدائي

تبين لي من تحليل الخلفية العلمية لقتلة الأهل والأقارب لأسباب دينية، ولظروف ارتكابهم جرائمهم، أنه يمكن تصنيفهم، في رأيي، إلى صنفين، هما: **الأول**، قاتل أيديولوجي

مرتبط بالجماعات الدينية المتشددة، وبعضهم مطلوبون أمنياً، وعدد هؤلاء اثنان فقط، ويمثلان الحالات الأولى والسادسة، ويمكن تصنيف هؤلاء بأنهم امتداد للقاعدة حتى لو التحقوا بداعش، إذ يكون المجني عليه من قرابتهم من الدرجة الثانية والثالثة، ويستخدمون السلاح الناري من مسافة بعيدة نسبياً، ويؤمّنون لهم وسيلة هرب محكمة. والصنف **الثاني**، قاتل بدائي دخيل على التديُّن، وهذا هو الأهم، لأنهم هم من يقتلون أصولهم (الأب والأم)، ويقصد به في هذه الدراسة: الأشخاص الذين لديهم صورة ذهنية شاذة عن الدين، وأنه يتركز في الالتزام التام والولاء والبراء وإنكار المنكر والتكفير، ويعتمد هذا التصور على العاطفة والتلقين لا على الدليل والمنطق. لذلك يعتقد القاتل بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة، ويتم شحنه ضد الدولة والمجتمع بنصوص شرعية متلاعب في سياقها التاريخي والديني والاجتماعي، أو من خلال عرض نصوص دينية صريحة نزلت في المشركين وإسقاطها على واقع المسلمين في بلد المتديِّن وعلى أهله وأقاربه.

ويمكن أن أسمي التديُّن البدائي بالعقل النصي، ويُقصد بالعقل النصي: الأفراد غير المؤسَّسين علمياً ولا منهجياً من الذين يؤمنون بقداسة النص، دون تمييز بين ما هو معلوم من الدين بالضرورة وما هو تربوي وفقهي، ويؤمنون بوجوب الحصول عليه من طريق التلقين لإيمانهم بعدم قدرتهم على فهم النص، سواء كان نصاً مؤسساً للإسلام كالقرآن الكريم، والسنّة النبوية، أو نصاً تراثياً منسوباً لأحد السلف، ويغلّبون ظاهر النص على تأويله أو سياقه الذي وجد فيه، أو يفسرون النص ضد المجتمع؛ فالعقل النصي، كما يقول الخباز: يسعى لتكوين ثقافته وتصوراته عن العالم وعن الآخرين من خلال وسيط، وهو النص (الخباز، ٢٠٠٩: ١٢).

عدد الذين تدينوا فجأة وقتلوا أهلهم لأسباب دينية أحد عشر قاتلاً، نفذوا أربع حالات قتل، ويتسمون بأنهم في عمر العشرين سنة، وتحصيلهم العلمي منخفض، وليس لهم خبرات سابقة مع الجماعات الدينية المتشددة، وإنما ظهرت على بعضهم قبيل ارتكابهم جرائمهم بعض الأمور التي استغربها المحيطون بهم مثل: ترك الصلاة بالمسجد، وعدم الخروج من المنزل، والجلوس وقتاً طويلاً في تصفح شبكة الإنترنت، مما يدل على أن رؤيتهم للعالم لمن حولهم قد تغيرت، وهذا يعني أن تصوراتهم لله تعالى ولدينه قد انحرفت إلى منحى «نصي» مختلف عما تربى عليه، فتأويله الجديد للنص المقدس كفيل بتحطيم قدسية جميع الأنظمة والعادات والتقاليد. يلاحَظ أيضاً أنهم كانوا يختارون ضحاياهم من أقاربهم بعناية تنسجم مع أدبيات جماعتهم الدينية، مع أن قتلهم عبثي بلا رؤية ولا هدف نهائي، لا يعود عليهم ولا على جماعتهم بالنفع ولا راحة البال، وإنما تلبية لتأويلهم الجديد لقداسة «النص» الذي أسيء فهمه، واستغل توجيهه إلى غير سياقه، وليس لديهم أدبيات أيديولوجية وعقيدة تمكنهم من تحديد قتلاهم، لذلك كان ضحاياهم هم أهلهم وأقاربهم، وسلاحهم إما الأبيض كالسواطير والسكاكين، وإما سلاح ناري، ولكنه يستخدم من مسافة قريبة جداً، ووسيلة تخفّيهم وهروبهم مكشوفة، كما أن بعضهم وثق الحادثة بالصوت والصورة.

وبتحليل كلمة الذي قتل ابن عمه في الشملي، وهي الحالة الوحيدة الموثقة والمنشورة، قال: «أول شي أبايع أبو بكر البغدادي على السمع والطاعة في المكره (بعدها صمت لثواني ثم أعاد بناء الجملة) أبايعه على السمع والطاعة في الشدة وفي اللين». ويلحظ من صمته تعثره في تذكر كلمة (والمنشط) وهي القالب النصي للبيعة، ولكن سمعه، فيما يبدو، لم يعتد على الكلمات الفصيحة النادرة الاستخدام، فاستبدلها فوراً.

وهذا يلفت انتباهنا إلى أهمية التعرف إلى الحياة الفكرية للمتديِّن فجأة في آخر شهرين عاشها قبل تنفيذ عملية القتل، والتعمق في التعرف إلى آليات فهمه النص المقدس، بوصف ذلك الأساس الموجِّه لأفكاره ووجهات نظره وعلاقاته بأهله وأقربائه وعلاقاته الجديدة إن وجدت، فتاريخ حياة القاتل قبل جريمته بشهرين مثلاً يعد من أهم ما يمكن معرفته لتفسير ظاهرة قتل الأهل والأقارب، وهذه المعلومات لا يمكن الحصول عليها إلا بدراسة إثنوغرافية تعتمد على إجراء مقابلات معمقة مع كل من يعرف القاتل وكان قريباً منه قبل ارتكاب جريمته بشهور.

ويشترك كل من المتديِّن البدائي والمتديِّن الأيديولوجي في أن كليهما يحمل عقلاً نصياً، وهو عقل يسقط نص الآية المقدسة وفق هواه، وهو يعتقد أنه يمتلك حق إسقاطها على من يخالفه، ولو كان قريبه. يفسر بورديو النسخة الدينية البدائية بأنها: خطاب ديني رمزي، يشوِّه النصوص الدينية عبر خطاب عاطفي لا عقلاني؛ لأنه مستمد من خطاب ديني أسير الصورة الأولى البدائية، وتتحكم فيه ثنائيات ساذجة كالخير والشر، والإيمان والكفر، والعقل والنقل، حيث ينتقل الخطاب الديني إلى خطاب إلهي يتماثل مع النص الديني المقدس ويتماهى معه (الحيدري، ٢٠١٥: ١١٧).

وفي تقديري أن تأثير النصوص سيكون فاعلاً في الأشخاص الذين لم يسبق لهم التديُّن ولا يعرفون أدبيات الاتجاهات الدينية واختلاف الفقهاء، ولا يميزون بين مسائل العقيدة عن المسائل الخلافية في الفروع؛ لأنهم سيفتقدون الحساسية من أدبيات الفكر الديني، ولن يميزوا بين الأدبيات وممارستها في الواقع، وهذا عنصر مهم لإرباك القاتل، مع عنصر الوقت من خلال تسريع تنفيذ جريمته قبل أن يدرك أدبيات التديُّن والمعارضة، «ويستند الإرهابيون إلى منظومة فكرية وثقافية تسوغ أعمال العنف وتحاول تبريره وإعطاءه شرعية، وتستعين بشعارات ومقولات تخاطب الغرائز وتدغدغ العواطف البدائية دون وعي العقل» (الحيدري، ٢٠١٥: ٣١). وقد يساعد على ذلك عامل البطالة، بوصفها العامل الذي يربط بين المتاعب الخاصة والقضايا العامة، وفق مفهوم رايت ميلز، وتكمن خطورة البطالة للفئات العمرية الشابة في أنها بطالة بإرادة الشاب وفق موقفه المعادي للدولة، وفي كمية وقت الفراغ، مضافاً إليه الحماس والاندفاع، مع عدم اكتمال وعيه الاجتماعي ولا تقديره عواقب الأمور. وأعتقد بأن برامج القضاء على البطالة لا تزال غير مجدية؛ لأنها تنظر إلى المشكلة من زاوية اقتصادية بحتة، وبعض البرامج مثل حوافز توفر المال للعاطل، ولكنها لا توفر العمل الذي يستنزف وقت الشباب، بغض النظر عن مستوى إنتاجيتهم.

ويمكن الدمج بين القاتل الأيديولوجي المتشدد دينياً، والقاتل الدخيل على التديُّن، من خلال منظور الجماعات المتخيلة، فقد لاحظ عالم الاجتماع الأمريكي ريتشارد سينيت في كتابه «سقوط الإنسان العام» ظهور الأيديولوجيات الحميمية، التي تتمثل بظهور فكرة «المصالح المشتركة» بدلاً من فكرة «الهوية المشتركة»، مما حولها إلى تماهٍ وجداني لجماعة بعينها، يجمع بينها رفض كل من هم خارج دائرتهم الخاصة (باومان، ٢٠١٦: ٦٧). وجاء بعده بنديكت أندرسون ووضح في كتابه «الجماعات المتخيلة» أن سر التماهي الذاتي مع فئة كبيرة من الغرباء المجهولين الذين يعتقد المرء أنه يشاركهم شيئاً بالغ الأهمية بحيث يتحدث عنهم باستخدام الضمير «نحن» الذي يمثل الضمير «أنا» جزءاً منه (باومان، ٢٠١٦: ٦٧).

كما يوضح باومان بأن الطريق الوحيد لضم «المجهولين» إلينا «نحن» هو تصويرهم باعتبارهم شركاء في طقوس اعترافية (باومان، ٢٠١٦: ٦٧). ويرى باومان أن سياق الفعل البشري، صار يمثل، بسبب العولمة، «وعاء زاخراً بأصدقاء وأعداء محتملين، وتلوح فيه إمكانية تشكل الروابط العائمة والعداوات المنجرفة فترة من الزمن، لكنها ما تلبث أن تذوب وتتفكك مرة أخرى، وتفسح الطريق لتشكلات أخرى مختلفة، فالجماعات المتماثلة وعاء محدد سلفاً ينتظر من يحتويها بمادته... فهذه الجماعات لا تدوم أطول من الانفعالات التي تجعلها في بؤرة الاهتمام وتدفع إلى تجميع المصالح، وهي مصالح عابرة، لكنها ليست أقل حدة، تحث على التجمع والاحتشاد والالتزام بالقضية» (باومان، ٢٠١٦: ٦٨).

خاتمة

من يتتبع تاريخ الحركات الإرهابية التي نفذت في المجتمع من بعض أبنائه، سوف يلحظ وجود عملية نشوء وتطور للإرهاب، فكلما ظهرت جماعة وتم القضاء عليها، تظهر بعدها جماعة أكثر عنفاً؛ إذ نجد أن عمليات قتل الأهل والأقارب المنتسبة إلى داعش، تركز كثيراً على إضعاف عنصر الثقة من خلال تحطيم نسق الأسرة، في حين نجد أن الجماعة التي سبقتها، وهي القاعدة، لم تفعلها، وإنما كان لها أهداف محددة تتركز في إخراج الكفار من جزيرة العرب، من خلال استهداف تجمعاتهم، واستهداف المؤسسات الأمنية المسؤولة عن حمايتهم، كما أن الجماعة التي سبقت القاعدة، المشهورة بجماعة جهيمان، احتلت الحرم المكي بدعوى وجود فساد أخلاقي في المجتمع، ويؤيد ذلك هَوَس الجماعة بفكرة المهدي الذي سيخلص المجتمع من الفساد وينشر العدل، ولكنها لم تفجر، ولم تقتل أفراد المجتمع أثناء مسيرتها الدعوية، ولم تتعرض للأجانب. وهذا يعني أننا أمام حالة عبثية بلا هدف، وليست فكرية ولا دينية متطرفة، لا نعرف اتجاهها ولا أسبابها.

إن القضاء على فكر داعش، بل وفكر أي جماعة دينية متعصبة مهما كان دينها ومذهبها، لا يكفي لحماية المجتمع. فعندما شعرت داعش بالهزيمة الجماعية أطلقت مشروع الذئاب المنفردة لتهدد به مناطق العالم، بما فيها الذئاب المنفردة في السعودية التي اهتمت بالقتل الانفرادي للأهل والأقارب، لكنه يهز المجتمع، لأنهم يزرعون بذور فقدان عنصر «الثقة» داخل الأسرة العربية. وقد تحدثت مع أصدقاء يعملون في القطاعات العسكرية، ومع آباء،

ولاحظت نشوء توجس منهم تجاه أي قريب لهم بدائي التديُّن. وتوجُّس العسكريين والآباء لا يعني أنهم على حق، بل تدل على بداية إضعاف عنصر «الثقة»، لأن الضحية لا يعرف سبب القتل؛ وبخاصة أن جميع حالات قتل الأهل والأقارب تمت أثناء ممارسة الحياة اليومية بشكل طبيعي، ومن داخل طبقة وسطى محافظة، وهذا الوضع، أو الفضاء الاجتماعي، هو الفضاء الطبيعي الذي تعيشه الأسرة العربية.

المجتمع، إذاً، أمام نمطين من أنماط الجريمة، هما قتل الأهل والأقارب، وتوقع أشكال إرهاب متطورة ضد المجتمع، وهذا يعني أننا أمام رؤية جديدة للإرهاب، ينبغي محاربتها برؤية جديدة لمكافحة الإرهاب والجريمة من خلال أساليب سليمة. ويمكن، في رأيي، تحديد اتجاهين أساسين يندرج تحتهما كثير من الإصلاحات والمعالجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، يمكن أن تسهم في القضاء على الإرهاب ضد المجتمع، وهما: تحقيق العدالة بالقانون، وحماية قداسة الأسرة، وذلك كما يلي:

الاتجاه الأول: تمكين العدالة التي تضمن تكافؤ الفرص وقبول الآخر وتعدد الثقافات، ورفع نسبة سيادتها في المجتمع بوضع الأنظمة والقوانين؛ فالقانون كفيل بإصلاح المجتمع ودعم الثقة بين أفراده ومؤسساته، وتحييد العقل النصي المحرض على استخدام العنف ضد المخالف؛ لأن ذلك العقل النصي هو من ينشئ الأدلجة. وإذا كان صموئيل هنتنغتون لاحظ انتهاء صراع الأيديولوجيات والانتقال إلى صراع الحضارات، «حيث لا تستمد الشعوب هويتها الأساسية من انتمائها الأيديولوجي، كما حدث أيام الحرب الباردة، بل من إرثها الثقافي تحديداً (فوكوياما، ٢٠١٥: ٢٣)؛ فإن هذه الملاحظة لا تعني بالضرورة أن الأيديولوجيات الكبرى، التي عرفت بالحرب العالمية الباردة، قد انتهت من العالم كله، إذ ما تزال الجماعات المتطرفة والتي تفسر الدين بطريقة راديكالية نشطة في أجزاء من العالم، ومنه الوطن العربي، وتغرس أفكارها في لاوعي البسطاء، مستغلة ما يتقاطع مع مصالحها من نصوص السلف، من خلال قنوات تواصل مباشرة وغير مباشرة، ومن أهمها التقنية والتعليم، حتى صارت بعض المعلومات في المقررات الشرعية في التعليم تتفق مع فكر داعش من حيث المصادفة لا من حيث التأييد والاتفاق؛ لذلك يرى ساري حنفي أن سرديات السياسة الشرعية في التعليم الجامعي «ما هي إلا تنظير واعٍ وغير واعٍ لما تقوم به الدولة الإسلامية (داعش)؛ ففكر واستراتيجية تنظيم القاعدة وداعشٌ لم ينظرٌ له فقط من قبل كتابَي **الفريضة الغائبة** لمحمد عبدالسلام فرج، و**إدارة التوحش** لأبي بكر ناجي، وإنما عشرات الكتب التي تدرَّس في الجامعات العربية» (حنفي، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠١٦).

الاتجاه الثاني: حماية قداسة الأسرة، وهو مرتبط بالاتجاه الأول، فالأسرة العربية تتعرض للتآكل وضياع الأدوار بداخلها، وإذا كانت دراسة عربية أجريت في الجزائر أشارت إلى تعرض الأسرة إلى تراجع دور الأب، وتولي الأبناء مركز القوة والسيطرة والتحكم في مصير الأسرة (نسيسة، ٢٠١٣: ٢٨). وإذا كانت التقنية استطاعت تفكيك روابط الأسرة من خلال عيش كل فرد من أفراد الأسرة مع أسرته ولكن لا أحد منهم يتنبأ بما يفكر فيه أخوه أو أخته في الغرفة المجاورة، فإن فكر داعش يسعى لخلط مفهوم القرابة بالدولة، وهما

أهم دعامتين للمجتمع، من خلال الاستخدام الشاذ لنصوص الدين. والتصدي لهذا الفكر الإرهابي الجديد لن يتحقق إلا بحلول سليمة جديدة، من أهمها حماية الأسرة.

يصف عالم النفس الشهير فرويد في كتابه **في قلق الحضارة** الوصية الشهيرة: «أحبب قريبك كما تحب نفسك». بأنها أحد المطالب المثالية للمجتمع المتحضر، وأنها قمينة بأن تهدينا إلى سواء السبيل (فرويد، ١٩٩٦: ٦٨). ويعلق باومان بأن هذه الوصية تعد اليوم تناقضاً مع العقل الذي تروجه الحضارة، عقل المصلحة الشخصية الذي يبحث عن المنفعة الخاصة تسوغ تواصله مع جيرانه (باومان، ٢٠١٦: ١١٧) أو أقاربه، دون اعتبار للأخلاقيات ولقيم المجتمع. ويلحظ فرويد: «أن الإنسان نزّاع إلى تلبية حاجته العدوانية على حساب قريبه، وإلى استغلال عمله بلا تعويض... وإلى وضع اليد على أملاكه وإذلاله، وإلى إنزال الآلام به واضطهاده وقتله، الإنسان ذئب للإنسان» (فرويد، ١٩٩٦: ٧٢). وكما يرى فوكوياما أنه: «وبالطبع لا يمكن لأي حكومة إصدار مرسوم تشريعي بإيجاد بنية عائلية قوية ومستقرة، ومؤسسات اجتماعية متينة بالطريقة التي تنشئ بها جيشاً أو مصرفاً مركزياً، إذ يعتمد المجتمع المدني المزدهر على عادات الناس وتقاليدهم ومبادئهم الأخلاقية، وهي سمات لا تتشكل إلا بطريقة غير مباشرة عبر الفعل السياسي الواعي، ومن الضروري تكريسها وتنميتها عبر زيادة الوعي واحترام الثقافة» (فوكوياما، ٢٠١٥: ٢٣).

إحدى المعالجات الاجتماعية، في رأيي تكمن، كما أشرت منذ البداية، في إعادة القداسة للأسرة، وهذا يتطلب إجراء سلسلة من الإصلاحات الواقعية، من أبرزها: سن أنظمة تؤكد على قداسة الأسرة، وتحمي الأصول من الفروع، كما سُنت أنظمة تحمي الفروع من الأصول، كنظام حماية الأطفال والمرأة من الإيذاء، وتقليص الفجوة بين رسم المجتمع المثالي في التعليم والإعلام والمجتمع الواقعي، ورفع مستوى الشفافية، والحرية في الرأي، وفتح الحوار مع من يخالفنا فكرياً، مع إعطائه الأمان مهما اختلف معنا فكرياً ودينياً، وإيقاف الحوارات الوطنية الزائفة التي تروِّج اختلافات ثانوية بوصفها أساسية، ونجد بذورها في التعليم وبعض المؤسسات المجتمعية والإعلام القديم وليس لها فاعلية، وكذلك طرح ما يحتاج إليه المجتمع واقعياً، لأن الواقع يكشف هوّة كبيرة بين الحوار الذي تريده المؤسسات الحكومية والحوار الشعبي المطروح في الإعلام الجديد، فروح الحوار الشفاف والانفتاح الفكري في المدرسة، والعمل، والشارع، وفي الإعلام القديم والجديد، وبين أفراد الأسرة يمثل سبباً مهماً في الاستقرار الأمني. وفي رأيي أنه كلما زاد الحوار والشفافية في الأسرة قلَّ العنف الديني، وكلما انخفض الحوار زاد العنف الديني.

المراجع

أبراش، إبراهيم (٢٠٠٩). **المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية**. عمّان: دار الشروق.

ابن عاشور، محمد الطاهر (١٩٨٤). **تفسير التحرير والتنوير**. تونس: الدار التونسية للنشر.

أحمد، محمود محمد (٢٠١٥). **تطور مفهوم الجهاد: دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر**. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

إيكرز، رولاند وكرستين سيلرز (٢٠١٣). **نظريات علم الجريمة: المدخل والتقييم والتطبيقات.** ترجمة ذياب البداينة ورافع الخرايشة. عمّان: دار الفكر.

باومان، زيجمونت (٢٠١٦). **الحب السائل: عن هشاشة الروابط الأسرية.** ترجمة حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

تودوروف، تزفيتان (٢٠٠٩). **الخوف من البرابرة: ما وراء صدام الحضارات**، ترجمة جان ماجد جبور. أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ـ كلمة.

الجرجاني، علي بن محمد الشريف (١٩٨٥). **التعريفات.** بيروت: مكتبة لبنان.

حنفي، ساري (٢٠١٦). **من نظّر لداعش: قراءة لمقرر السياسة الشرعية في جامعة خليجية**، موقع معهد العالم للدراسات.

الحيدري، إبراهيم (٢٠١٥). **سوسيولوجيا العنف والإرهاب.** بيروت: دار الساقي.

الخازن، منير وهيبة (١٩٥٦). **معجم مصطلحات علم النفس.** بيروت: دار النشر للجامعيين.

الخباز، محمد (٢٠٠٩). **صورة المرأة في التراث الشيعي: تفكيك لآليات العقل النصي.** بيروت: دار الانتشار العربي.

سيلامي، نوربير (٢٠٠١). **المعجم الموسوعي في علم النفس.** ترجمة وجيه أسعد. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (١٩٦٨). **الملل والنحل.** تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

فرويد، سيغموند (١٩٩٦). **قلق في الحضارة.** ترجمة جورج طرابيشي. ط ٤. بيروت: دار الطليعة.

فلهوزن، يوليوس (١٩٥٨). **أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة.** ترجمة عبد الرحمن بدوي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

فوكوياما، فرنسيس (٢٠١٥). **الثقة: الفضائل الاجتماعية ودورها في خلق الرخاء الاقتصادي.** ترجمة معين الإمام ومجا الإمام. الدوحة: منتدى العلاقات العربية الدولية.

مجمع اللغة العربية (١٩٨٣) **المعجم الفلسفي.** القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.

معيطة، أحمد (٢٠٠٠). **الإسلام الخوارجي: قراءة في الفكر والفن ونصوص مختارة.** اللاذقية: دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع.

نسيسة، فاطمة الزهراء (٢٠١٣). «العنف ضد الأصول في الأسرة الجزائرية المعاصرة.» (أطروحة دكتوراه، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر ٢).